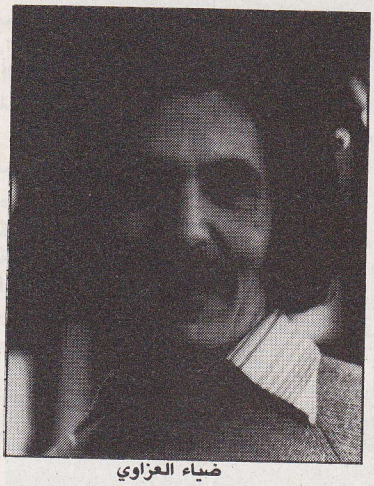

ضياء العزاوي

الفنان العراقي في معرضه الأخير

"نافذة من قصر العاشق"

ضياء العزاوي:

اللوحة حرية الفنان والمساحات في لوحاتي امتداد لذاكرتي عن الوطن

تحقيق بقلم مصطفى زين

الدخول الى عالم الفنان التشكيلي العراقي ، ضياء العزاوي ، من خلال لوحاته مسألة ، رغم المساحات غير المشغولة ، معقدة . خصوصاً اذا عرفنا ان هذه المساحات السوداء او البنفسجية – السوداء ليست مجرد اطار للزينة . ويهيأ لك حين تنظر الى لوحة ما ان العزاوي يجلس وسط هذه المساحات ويجمع قلقه وفرحه في زاوية منها. تماماً كما يجمع من يقف في الصحراء كل قلقه وهمومه في الزاوية او في النقطة التي يقف فيها او تلك التي سوف ينطلق اليها . ويبقى الهم الابدي محيطاً به من كل الجهات .

ضياء العزاوي ، في لوحاته الاخيرة ، كمن يرحل الى الداخل ، يرى جميع تفاصيله ويشكلها الوانا وسط محيط يبدو للوهلة الاولى فارغاً ، غير ان فراغه ينعكس في اتجاه اللاوعي ليحرك فيه التعاويذ والرموز والالوان الشعبية ، فيصبح الفن كما يقول العزاوي نفسه : «جانباً من جوانب الاضاءات النفسية التي تتطلع الى عالم السحر هروباً من المدينة» .

ويروي العزاوي علاقته بالفنون الشعبية فيقول : «هناك في العراق مقبرة كبيرة جداً ، يدفن في النهار الواحد عدد من الموتى ، فلا يكاد اهل فقيد ينتهون من مراسم الدفن حتى يأتي وفد اخر وقد حمل نعشاً ليجري نفس المراسيم . كنت اقصد هذه المنطقة واراقب الناس في تقاليدهم وعاداتهم وملابسهم وندبهم للموتى . مشهد العزاء الدائم هذا اثر على العديد من لوحاتي . غير انني لم ارسم وجوه المعزين وحركاتهم ، وقد تجد في اي لوحة لي خطاً أو اشارة او حرفاً او لوناً يعود بالرائي الى الحالة النفسية التي ترافق من يراقب الموت الدائم» .

ولأن هذه الحالة النفسية لا تأتي نقية بمفردها وانما تخالطها حالات اخرى ، اما محفوظة في الذاكرة او يفرضها مشهد تفصيلي ، فالعزاوي يرسم الاشياء متداخلة الى حدود التقاطع .

◆ الحروفية في لوحات العزاوي

قد يكون ما سبق الكلام عليه مدخلاً جيداً لعالم العزاوي الفني ، لكن هناك ظاهرة اخرى في لوحاته تسترعي الانتباه ، وهي ظاهرة تشكيل الحروف بطريقة مختلفة ، عن اي فنان اخر . فبدل ان يأخذ الحرف بعده الفني من خلال المعنى ، اي من خلال الكلمة بكليتها ، كما درجت عادة الحروفيين

من مجموعة «تل الزعتر» ، قصيدة الطاهر بن جلون

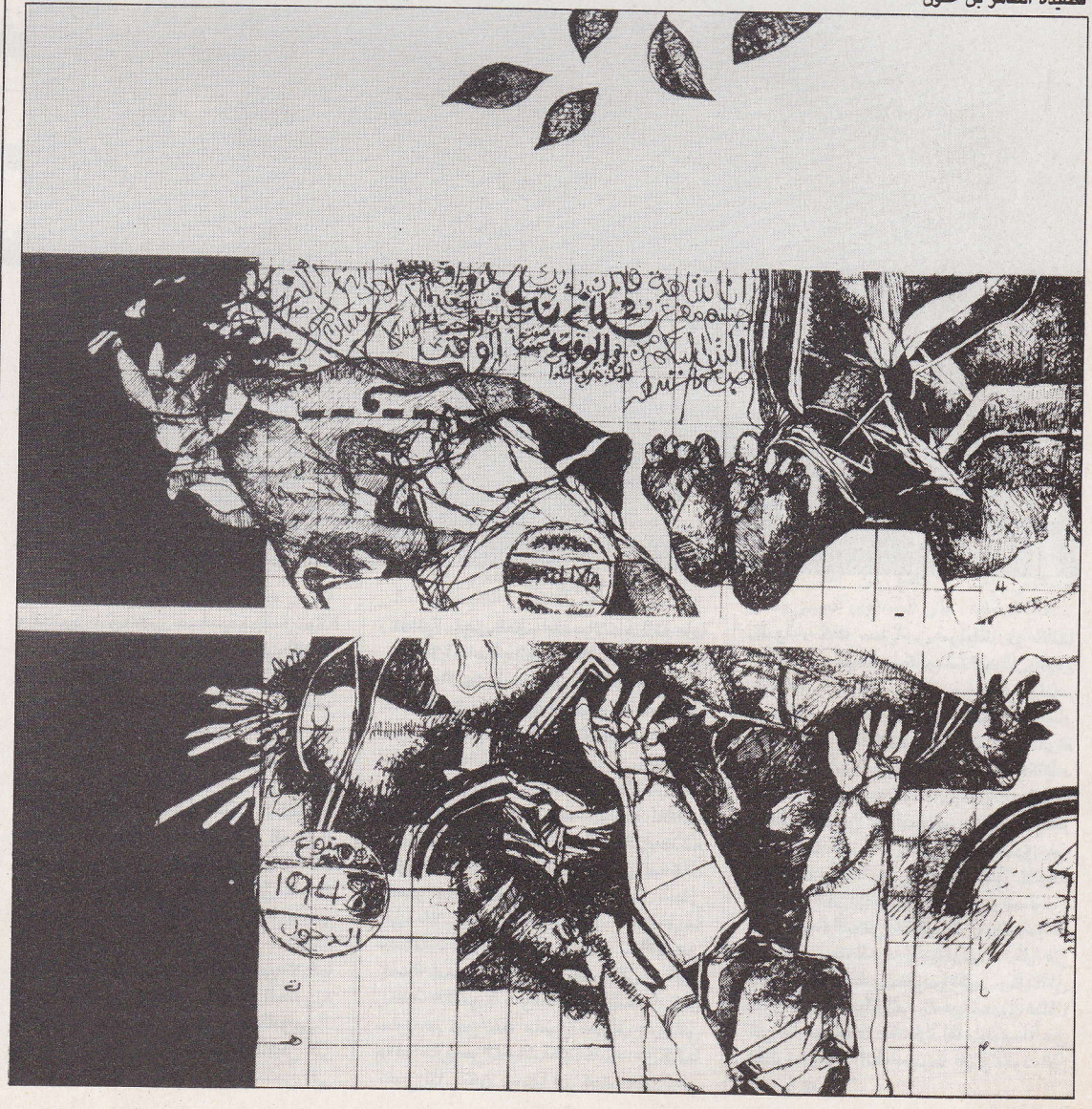

طائر الحدائق ـ غواش ٥٧ / ٧٧ سم

اشكال عربية ـ غواش ٥٧ / ٧٧ سم

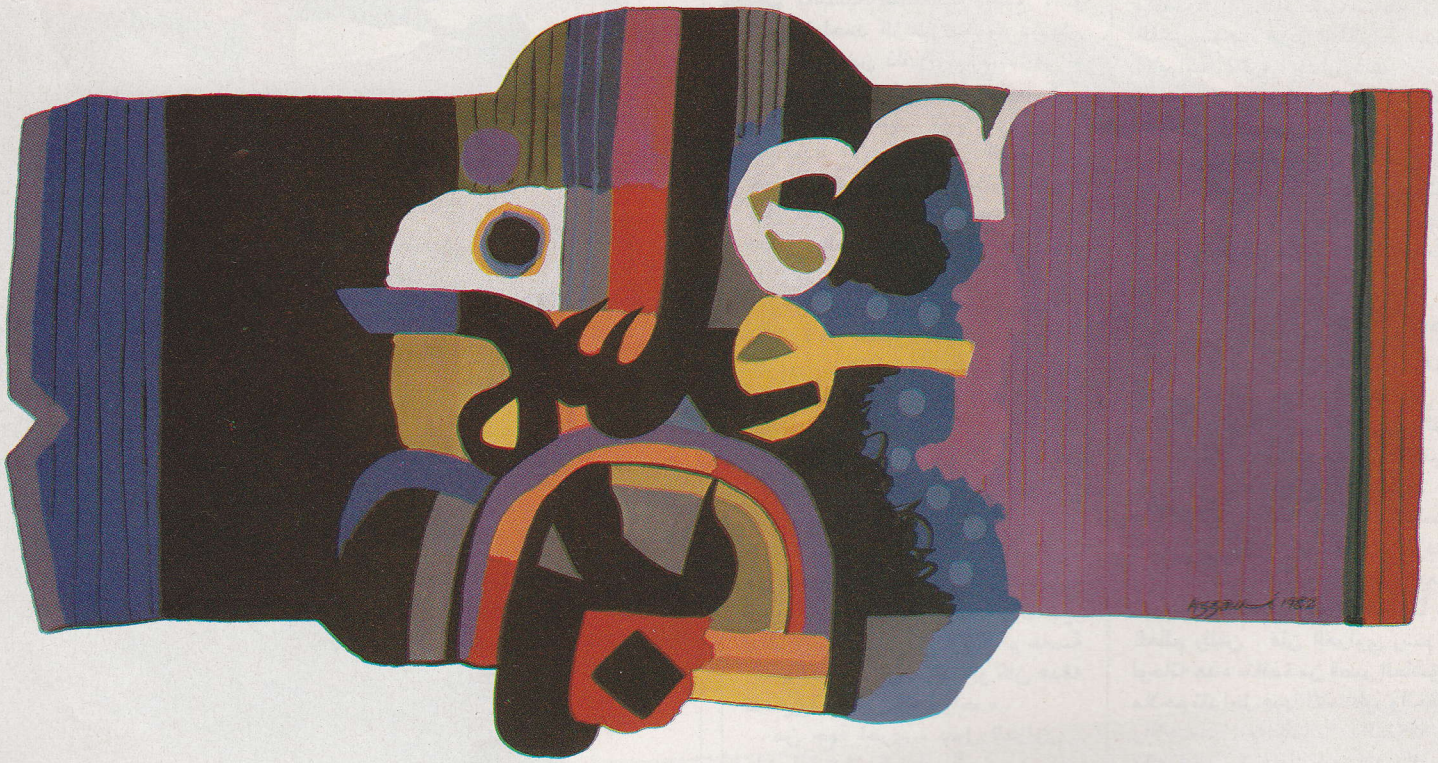

«نافذة من قصر العاشق» غواش ٥٧ / ٧٧ سم

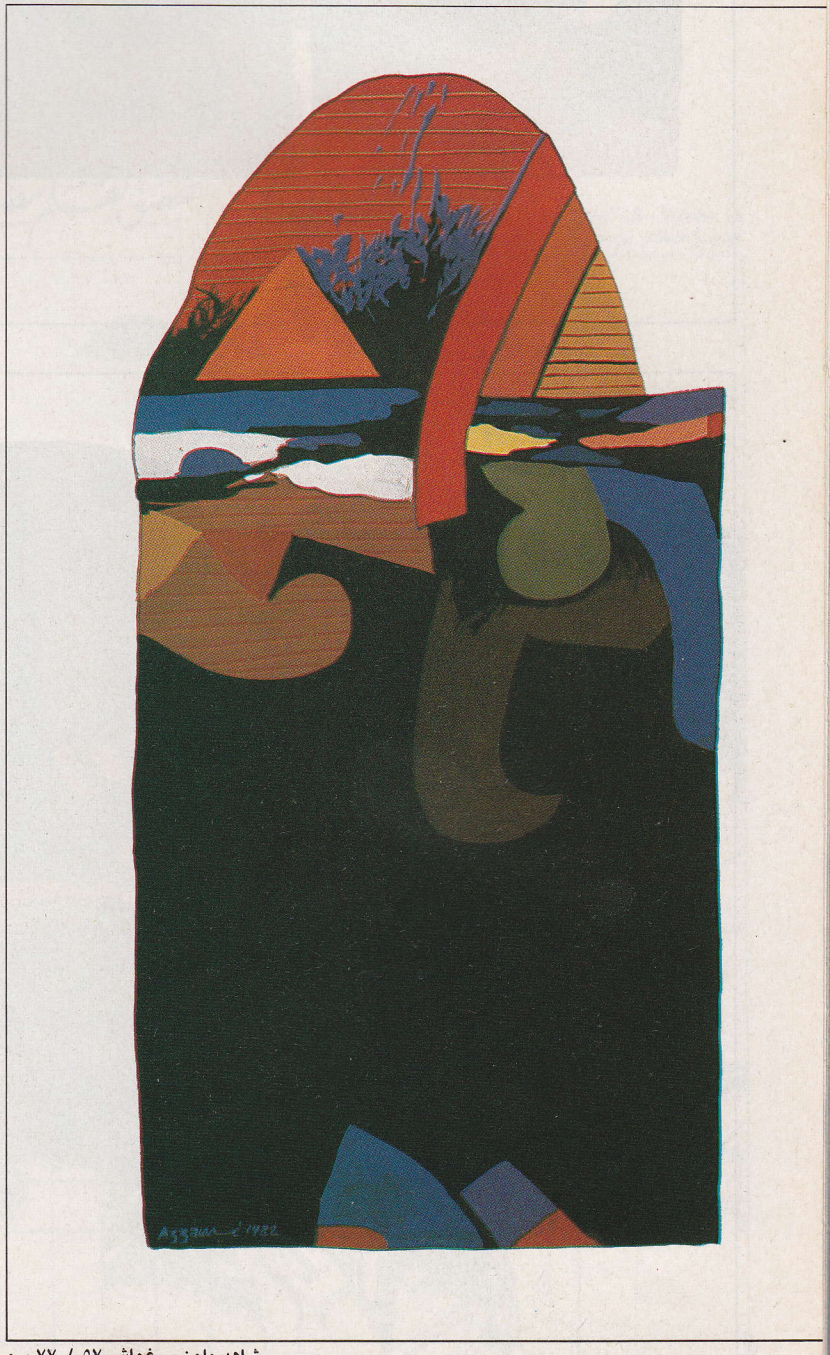

شاهد ملون ـ غواش ٥٧ / ٧٧ سم

والخطاطين ، نجد العزاوي يوزع الحروف في لوحته دون هدف مضموني ، اي دون ان يقصد ابراز المعنى من خلال كلمات مأثورة او جديدة ، هو لا يهمه الكلام الذي تتشكل منه الحروف بقدر ما يهمه الحرف نفسه من حيث دوره التشكيلي في اللوحة . اي من خلال ايحاءاته النفسية . لذلك لا يستطيع الرائي الى لوحات العزاوي ان يقرأ كلمة واحدة وإن حصل ذلك فمصادفة .

وحين يرسم العزاوي قصيدة ، كما فعل بالنسبة للمعلقات السبع ، او قصيدة احمد الزعتر لمحمود درويش فلا يقصد من ذلك توضيح الشعر او اضافة رسم تزييني عليها ، وانما يكتب في اللوحة قصيدة ثانية في موازاة القصيدة الاولى . ففي الشعر كما يقول : «زخم روحي كبير يخلق مجموعة صور تساعد الفنان على رسم ايحاءات معينة ، علماً ان الجانب التشكيلي يؤثر اكثر من الكلام» .

غير ان الرسوم التوضيحية ، منتشرة في الفنون الشرقية الى جانب الشعر . ولأننا نحن العرب اصحاب ذاكرة حروفية او كلامية ، اذا جاز التعبير ، فاننا نميل دائماً الى قراءة الرسم المرافق للنصوص قراءة توضيحية . ويرى العزاوي ان هذا الكلام يجوز في بعض المواقع ، غير انه «لا ينسحب على رسوم الواسطي . فهي غير توضيحية وكان هم صاحبها صياغة نوع من التعادل لا التفسير لذلك وضع الواسطي اربعة او خمسة رسوم للمقامة الواحدة . ولو كان هدفه تفسيرياً لاكتفى برسم واحد» .

من جهة اخرى ، يقول العزاوي : «ان استخدام الحرف العربي يساعد الفنان غير ان الجو الذي يشيعه يختلف من رسام الى اخر . لذلك ، عندما يستخدم رسام اجنبي الحرف العربي في لوحاته ، وهذه ظاهرة شائعة ، لا تحسه متفاعلا مع الكلمة ، **رسم** فالحـــرف بالنسبة له مجرد زخرف ، اما بالنسبة الي فهو تجميع ذاكرة ورسمها بالالوان ، فاللوحة حرية الفنان وهو القادر على توصيل هذه الحرية الى الاخرين . بعبارة اخرى هي حرية مدى توصيل هذه الحرية» .

واذا كان الحرف ظاهرة ملفتة في لوحات العزاوي فالطائر ظاهرة اخرى مهمة . فهو حسب تعبيره امتداد لذاكرة تعود الى الوطن . ويروي العزاوي تفصيلا من هذه الذاكرة فيقول : «كنت منذ شهور ، في بغداد واصررت ان انام على السطح ، ومع الفجر سمعت هدير الطائرات الحربية الايرانية تخرق جدار ذلك الصمت العميق ، وعندما استيقظت شاهدت رفوف الطيور والسماء الزرقاء والطائرات وبعض رؤوس النخيل ، كل هذا شكل منظرا لا انساه . وقد تكون المساحات في لوحاتي امتدادا لذاكرتي عن الوطن وسمائه الفسيحة» .

آخر اعماله

في اعماله الاخيرة «نافذة من قصر العاشق» والتي عرضها مؤخرا في ابو ظبي ، جسد العزاوي كل رؤاه الفنية المذكورة منذ بداية مسيرته الفنية ، غير انه في هذه اللوحات بالذات اتى اكثر تكثيفاً واكثر اهتماما بالتفاصيل اللونية في الزاوية المشغولة من لوحته ، واذا كانت الملحمة ، في بعض تعريفاتها ، تعبير رؤيا للعالم وما بعد العالم وللفن ، فان العزاوي رسم في لوحاته هذه «نافذة من قصر العاشق» ، ملاحم تتداخل فيها الاساطير والحقائق والاجساد والكلمات المفككة . والعزاوي ، لا يدعي طبعاً انه يملك رؤيا خاصة للكون ، وإلا كان عليه ان يشتغل في الفلسفة ، كما اننا لا نزعم ذلك . غير ان عالم هذا الفنان الجميل والغني بتناقضاته وتآليفه يشكل علامة فارقة في الفنون التشكيلية العربية ■